من سير الرجال :

أمـــيران . . .

للأستاذ محمد عبد الغني حسن

في العصر العباسي الأول كان أميران ... عاصر أولهما الخليفة المنصور في طفولة الدولة ، وعاصر الثاني « المعتصم » في اكتمال شبابها . ولكل منهما في الأمارة حوادث وأخبار

في عصر المنصور بنيت بغداد ، وجذب الخليفة إليها أنظار الناس ترغيباً في الإقامة فيها ، وقرب إليه الدعاة ممن توسم فيهم نبالة الأصل ، وضخامة المجد الموروث .

وكانت اليمن في ذلك الحين محتاجة إلى والٍ رحب الباع ، فسيح الحلم ، حسن السياسة ، مبسوط اليدين . فلم يجد الخليفة في غير معن بن زائدة طلبته

والأمير معن عريق في النسب ، فهو من بني مطر الذين يقول فيهم الشاعر :

بهاليل في الإسلام سادوا ولم يكن
كأولهم في الجاهليــــة أول

ولم يكن الأمير معن بخيلاً بعطاء ، ولا ضنيناً بمعروف ، بل كان يعطي عن سعة ، حتى أدهش الناس بعطائه فقصدوه ، والمورد العذب يكثر الزحام عليه

والكرم وحده ليس مزية الرجال . ففي الدنيا كرام يقلون أو يكثرون ، ولكن مزية الرجل هي الكرم مع المروءة ، والجود مع الهمة ، والعرف مع الأريحية ، ومن هنا كانت شهرة معن . ومن هنا كان اسمه في سجل أرباب المروءات

فقد يعطي الكريم اضطراراً ، أو مداراة ، أو دفعاً لمظنة ، أو شراء لمرض ، ولكن « معنا » كان يعطي للذة العطاء ، ولاتصال المعروف ، حتى بلغ كرمه إلى عدوه ، ووصل نداه إلى خصمه ، لأنه يفرق بين المعروف والخصومة

حدثوا عن هذا الأمير أنه كان جالساً وعلى رأسه صاحب شرطته ، فإذا براكب مقبل يتهيأ للنزول ، فقال معن لرئيس شرطته : ما أحسب الرجل يريد غيري . ثم أشار إلى حاجبه قائلاً : لا تحجب الرجل عن مجلسي فلعل له حاجة ، فنزل الرجل ومثل بين يدي الأمير وأنشد :

أصلحك الله قل ما بيدي فما أطيق العيال إذ كثروا
ألح دهر رمى بكلكله فأرسلوني إليك وانتظروا

فترنحت أعطاف معن ، ووصله بناقة فتية وألف دينار وهو لا يعرفه

وقد أجمعت كتب الأدب على هـذه الحادثة ، وذكرها البغدادي صاحب « تاريخ بغداد » بسندها واحداً عن واحد

ولقد بلغ من مكانة معن في الكرم أن الكرام بعده حاولوا أن يتأثروه في جوده . فهذا الصاحب بن عباد وزير بني بويه ، والذي ظهر بعد معن بأكثر من قرنين من الزمان ، هذا الصاحب كان يعطي على طريقة معن أو يجود على مذهبه ، فقد جاءه شاعر يمدحه ، فقال الصاحب : قرأت في أخبار « معن » أن رجلاً قال له : ارحمني أيها الأمير . فأمر له بناقة وفرس وبغل وحمار وجارية ، ثم قال له : لو علمت أن الله خلق مركوباً غير هذا لحملتك عليه ، وقد أمرت لك من الخز بجبة وقميص وعمامة ودراعة وسراويل ومنديل ومطرف ورداء وكساء وجورب وكيس . ولو علمنا لباساً آخر يتخذ من الخز لأعطيناك إياه ... !

* * *

وكان في معن رجولة نادرة ، وشهامة عربية عزيزة المثال ، فلقد كان منقطعاً إلى الأمويين قبل ذهاب دولتهم ، فلما جاء العباسيون خاف منهم ، وظل في البلاد مستتراً عنهم حتى لا يقع في أيديهم ، وجعل « المنصور » لمن يأتي به مالاً جزيلاً . وظل الرجل ضارباً في الفلاة ، هائماً في الأرض حتى لوحته الشمس . وكان يتتبع الحوادث وهو متخف حتى لا تأخذه يد العباسيين ، فلما استقام الأمر للمنصور ، وكادت الدولة تتمكن ، رأى « معن » من حسن السياسة أن ينضم إليهم ، ولكنه تمهل في الأمر حتى تحين الفرصة ...

وجاءته الفرصة سانحة ... فقد ثار جماعة من خراسان على المنصور . وأرادوا قتله في يوم الهاشمية

وكان عند معن نبأ عن هـذه الثورة ، فخرج متفكراً ، وما زال يقاتل دون المنصور حتى فرق الثائرين ؛ فقال له المنصور : من أنت ... ويحك ؟ !

فكشف لثامه فى عزة وقال : أنا طلبتك يا أمير المؤمنين !

ومن ذلك الحين اتصل بالعباسيين وانقطع إليهم واستعين به على قضاء الحاجات عندهم ، فما رد سائلاً ، ولا خيب طالبا

واشتد فضل الرجل ، فاشتدت له عداوة الحاسدين وكشح الكاشحين ؛ وهم فى كل زمان لا تهدأ قلوبهم ولا تخبو نارهم . وكانوا يكثرون القول فيه والخوض فى أعماله أمام الخليفة ، وهو هو صلابة عود وشدة أسر ، لا يبالى بحربهم ، بل كان يرد النهم فى شهامة وإباء ، وعزة وكبرياء . فلقد حدثوا أن المنصور قال له يوماً : يا معن ! ما أكثر وقوع الناس فيك وفى قومك ! ! فقال : يا أمير المؤمنين :

إن العرانين تلقاها محسدة ولن ترى للئام الناس حسادا

وفى ذلك الرد من أخلاق الرجال ما فيه ...

وكان معن على يسار فى العيش وبسطة فى الرزق ، ولهـذا ظل بابه مفتوحاً ، ولم يمنعه من فتح بابه إلا سنة ضيقة ، أو نقص فى الأموال والثمرات ، فكان يستحى أن يقابل الناس على تلك الحال حتى لا ينكشف نقصه ، ويتعلل بالحجاب زماناً حتى يتسع الضيق أو يكثر السويق ...

* * *

أما الأمير الآخر ، فهو أبو دلف ، وكان معاصراً للخليفة المعتصم . ولقد بلغ عند الخلفاء محلاً عظيما فى الشجاعة وحسن القيام فى المشاهد ، وهو من « ربيعة » ، فهو يتفق مع « معن » فى كرم الأصل ، ولكنه يختلف عنه فى الغناء وحسن الصوت !

ويظهر أنه قسم حياته بين الشراب والشجاعة والعطاء ، فلا تجد له فى كتب الأدب خبراً إلا حول مجلس شراب أو وسط معركة ، أو مقسما على الناس العطاء

وما نهاه الشراب عن مكرمة ، ولا عوقه عن مروءة ، ولا تأخر به عن معركة ، فقد حدثوا عنه أنه كان جالساً يشرب مع جاريته « ظبية » ، وعليه ثياب معطرة بالمسك ، فجاءه الصريخ معلناً طروق الشراة وانقضاضهم على أطراف عسكره ، فلبس درعه ومضى يقاتلهم ، ويأسر منهم ، ويضرب فيهم ، حتى آخر الليل ، ثم عاد فى الصباح يغنى :

ليلتى بالسرادق كلت بالمحاسن
وجوار أوانس كالظباء الشوادن
بدلت بالمسكا ت أدراع الجواشن

* * *

وانقطع إلى أميرينا شاعران من أهل المكانة والقدر ، فانقطع إلى معن الشاعرُ مروان بن أبى حفصة وانقطع إلى أبى دلف الشاعر على بن جبلة . وكانت مدائح الشاعرين تثير على الأميرين أحقاداً وعداوات ، وتخلق لها مع الخلفاء عقداً ومشكلات ، حتى لقد لام الخليفة المنصورُ الشاعر مروان بن حفصة على مدحه لمن ، والمأمون نفسه كان يحفظه أن يسمع من ابن جبلة مدحاً فى أبى دلف ، حتى لقد اشتدت به الحفيظة يوماً حين سمع قول هذا الشاعر فى ذاك الأمير :

كل من فى الأرض من عرب بين باديه إلى حضره
مستمير منه مكرمة يكتسيها يوم مفتخره

وحق المأمون أن يغضب ، فإن مدح الحكام والوزراء والأمراء جائز على شرط ألا يكون فيه انتقاص الملوك أنفسهم ، أو إغفال لشرف أقدارهم

* * *

كان أبو دلف أريحياً يهتز للعطاء إذا وهب ، ويطرب للشعر إذا سمع ، وكان فيه شاعرية فياضة بلغت حد الارتجال فى موقف المجلان ، وتلك بديهة منه لم تفسدها المجلة ولم تعوزها الأناة ، فقد أجاد حتى على حال الارتجال

* * *

ولقد كان أروع ما فى هـذين الأميرين مروءة ونجدة ، وشهامة ونخوة . وفى تاريخ الأمة العربية أمارات وأمراء . وهى بلا شك لا تخلو من مواطن كريمة للمثال الكريم . ومن يقلب تاريخ هؤلاء الأمراء يجد فيهم ما يسر ويعجب

وفى نشر محمدة واحدة ما يغنى عن المحامد ، وفى شاهد واحد ما يجزىء عن مئات الشواهد

محمد عبد الغنى حسن

ما لزكي مبارك وكتاب الله

للأستاذ محمد أحمـــد الغمراوي

لقد فقد زكي مبارك كل حق كان له في أن يعرض لكتاب الله سبحانه بفهم أو برأي بعد أن ثبت عليه ما ثبت من إنكاره إعجاز القرآن ، وقوله بأن القرآن كتاب محمد ، وتعديه هذا وذاك إلى القول بمذهب وحدة الوجود الذي هو في الحقيقة إنكار للخالق بإحلاله في المخلوق ، أو بإحلال المخلوق فيه (سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً)

إن الذي يعتقد في القرآن عقيدة تضاد عقيدة المسلمين لا بد متأثر بما يعتقد حين يعرض للقرآن الكريم ببحث أو بفهم . فالذي يقول مثل زكي مبارك بأن القرآن كلام محمد مضطر أن يحمل القرآن على ما ينتظر أن يقوله بشر في العصر الذي عاش فيه النبي . أما المعاني التي تدل دلالة قاطعة على أن القرآن من عند الله لاستحالتها على العقل البشري في العصر الذي نزل فيه القرآن ، فهي عند مثل زكي مبارك ممتنعة عقلاً أن تكون من معاني القرآن . هـذا هو السر في أنه دائماً يحمل القرآن على ما يظن أن الناس كانوا يفهمونه أو يعتقدونه في العصر الذي عاش فيه رسول الإسلام كما يسمي النبي عليه الصلاة والسلام

حتى الوحي الذي كان ينزل على النبي هو عند زكي مبارك كهذا الإلهام الذي يزعم أنه يلهمه ، أو أن الشعراء والمفكرين يلهمونه ، ولو كان إلهاماً يلبس أسخف المعاني وأرذلها كما فعل في مقاله الذي قلت إنه عاد فيه إلى التعرض للقرآن بما لا يليق فانتقم الله منه به في نفس المقال ، وقال هو إنه رجع إلى المقال فلم يجد فيه لفظة واحدة تدل على أنه يخاصم القرآن

ولقد خاصم زكي مبارك القرآن الكريم في موضعين من مقاله ذلك ، بصرف النظر عن موضوعه الذي كله خصومة لما جاء به القرآن ودعا إليه

أما الموضع الأول ، فحين أنطق روح صاحبته بقولها له : « لقد أوحينا إليك » ؛ ووضعه ذلك هكذا بين أقواس ليدل على أنها كلمات مقتبسات وليست من إنشائه . واستعماله هذه الكلمات في المقام الذي وصف فيه ما كان بينه وبين صاحبته خة وخصومة للقرآن . إنه يعلم أن « أوحينا إليك » و « لقد أوحينا » كلمات لا توجد في العربية في غير القرآن . إنها من أخص الكلمات القرآنية وأفخمها وأشرفها ، لأن ضمير المتكلم فيها هو في القرآن ضمير الجلالة ، وضمير المخاطب فيها هو في القرآن ضمير الرسالة . فتصور بُعد ما بين الضميرين في الكلام القرآني وفي مقال زكي مبارك يتضح لك مبلغ عداوة هذا الرجل للقرآن .

ذلك هو الموضع الأول الذي تعرض فيه زكي مبارك للقرآن في مقاله . أما الموضع الثاني ، فحين أجرى المحاورة الآتية بينه وبين صاحبته التي أراد أن يقنعها بأن الجماد حي ، لأن بعض الزلط شكله شكل الدوم والخيار !

هي : وما رأيك في الآية الكريمة : « يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي » ؟

هو : « القرآن يعرض الظواهر التي تعارف عليها الناس لتكون الحجة على القدرة الإلهية أقوى وأوضح . فمن العجيب في نظر من لا يعرف أن تكون البذرة الخرساء أصلاً للدوحة الشماء ، وأن تكون البيضة الصغيرة أصلاً لطائر جميل يغرد أو يصيح

وفي جوابه هذا يفرض أن معنى الكلمات الكريمة لا يمكن أن يخرج عما كان يعرفه الناس في ذلك العصر ، لأن القرآن عنده إن هو إلا كلام محمد العربي الذي عاش في أواخر القرن السادس وأوائل القرن السابع الميلاديين . ومن هنا نسبته الخطأ إلى القرآن الكريم مرات في جوابه هـذا : نسب إلى القرآن أنه جارى الناس في تعجبهم مما لا عجب فيه في الحقيقة ، ونسب إليه أنه أراد أن يحتج لهم على القدرة الإلهية بما لا حجة فيه في الحقيقة ، ونسب إليه أنه جهل جهلهم حين عجب عجبهم من البذرة تخرج منها الشجرة ، والبيضة يخرج منها الطائر ، لأن هذا كله عجيب